تحت الرعاية السامية لمعالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي

SOUS LE HAUT PATRONAGE DE MONSIEUR, LE MINISTRE DE L' ENSEIGNEMENT SUPERIEUR ET DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE

الجـامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية - أدرار

L'UNIVERSITE COLONEl AHMED DRAYA-ADRAR

تنظـــــــم

ORGANISE

الملتقى الدولي الحادي عشر

Onziéme Colloque International

التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة

Le Soufisme en Islam et Les défis contemporains

أيام: ٩-١٠-١١ نوفمبر ٢٠٠٨

المحور الخامس:

التصوف والقضايا المعاصرة

الطريقة الزيانية وتطورها التاريخي

د. عبد القادر بوباية

الملخص:

Résumé:

cette intervention consiste a l'étude d'une confrérie religieuse fondée par le cheikh m'hamed den abi ziane dans la ville de Kenadsa, et son historique ainsi que ses principaux cheikhs et leur œuvres ; cette confrérie nommée Ziania qui a pu redonner une nouvelle vie a toute une région (Kenadsa et ses environs) par le biais de l'enseignement et les œuvres de bienfaisance a l'égard des démunis et passagers ainsi que par les autres réalisations accomplis par ses cheikhs et notamment les puits, la principale source de la vie au Sahara.

مقدمة:

مما لا شك فيه أن الطرق الصوفية قد لعبت دورًا كبيرًا في حياة المسلمين سواء من خلال التعليم أو من خلال النشاطات الأخرى التي كانت تقوم بها.

وينطبق ذلك تمام الانطباق على الطرق التي كانت منتشرة في الجزائر عامة، وفي المناطق الصحراوية منها على وجه الخصوص، ذلك أن العزلة والابتعاد عن المراكز العلمية التي كانت تعيشها هذه الأخيرة قد ساهم بشكل كبير في ظهور الطرق الصوفية التي لعبت دورا كبيرا في نشر التعليم بين صفوف أهل هذه المناطق، كما لعبت دورًا أهم في تنظيم الحياة داخلها، إضافة إلى تولي مسؤوليات أخرى مرتبطة بالظروف التي كانت تمر بها هذه المناطق.

لقد تحولت الزوايا إلى منابر للتعليم، وتخرّج على أيدي شيوخها الآلاف من الطلبة المجهزين بالعلوم التي يحتاجون إليها في توجيه عامة المسلمين، كما ساهم شيوخ هذه الزوايا في تنظيم المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي الذي وطأت أقدامه أرض الجزائر، ويجمع كل الذين أرّخوا للمقاومة الوطنية أن جلّ الذين قادوا مقاومة المحتلين كانوا من زعماء الطرق الصوفية.

وبمناسبة هذا الملتقى الدولي الذي تنظمه الجامعة الإفريقية حول "التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة" سأحاول تسليط بعض الضوء على الطريقة الزيانية في الجزائر، وتتبع أهم النشاطات التي قامت بها خلال الفترة الممتدة من تاريخ تأسيسها على يد الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن أبي زيان المتوفى على الأرجح سنة 1145هـ/1733م إلى الربع الأول من القرن العشرين.

لقد لعبت الزاوية الزيانية دورًا بارزًا في منطقة الجنوب الغربي سواء تعلق الأمر بمقاومة الاستعمار الفرنسي أو الأعمال الخيرية والاجتماعية المختلفة التي لها علاقة وطيدة بالتكافل الاجتماعي، وبخاصة تجاه العائلات المحرومة، إضافة إلى توفير الأمن لكل المضطهدين الفارين من بطش الأعداء.

تأسيس الطريقة الزيانية:

تأسست الطريقة الزيانية على يد أبي عبد الله الحاج امحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي زيان بن عبد الرحمن بن أحمد بن عثمان بن مسعود المراكشيi المعروف بمولاي بوزيان الذي ولد في منتصف القرن السابع عشر في عائلة شريفة كانت مقيمة عند مصب وادي درعةii، وقد تناولت بعض المصادر حياته بالتفصيل، ومنها على وجه الخصوص كتاب "طهارة الأنفاس والأرواح الجسمانية في الطريقة الشاذلية الزيانية" لمصطفى بن الحاج البشير، الذي قدمه ولخصه المستشرق الفرنسي أوغست كور، وكتاب "فتح المنان في سيرة الشيخ الحاج امحمد بن أبي زيان" لمؤلفه عبد الرحمن بن يعقوب مزيان اليعقوبي، وكتاب "منهل الضمآن ومزيل الهموم والكروب والأحزان في كرامات شيخنا العارف بالله سيدي الحاج امحمد بن عبد الرحمن بن أبي زيان" لمؤلفه الحاج علي الشامي1.

كان امحمد بن أبي زيان يهدف إلى الدعاية للطريقة الشاذلية بالوسائل التي كان قد استعملها من قبل محمد بن عمر الهواري، وهو أبو عبد الله محمد بن عمر الهواري الشيخ العالم الولي العارف بالله العالم العامل الكثير السياحة شرقا وغربا، والذي أخذ العلم عن أبي عمران العبدوسي والقبّاب وعبد الرحمن الوغليسي، وصاحب المؤلفات الكثيرة، والمتوفى سنة 843هـ1 وأحمد بن يوسف الملياني وأضرابهما من المرابطين الدعاة1، وقبل مواصلة الحديث عن مؤسس الزاوية الزيانية يجدر بنا التعريف بالطريقة الشاذلية باعتبارها الطريقة الأم للزاوية الزيانية.

يعتبر أبو الحسن الشاذلي مؤسس هذه الطريقة، وهو كما ذكر الذهبي في كتاب العبر: "أبو الحسن علي بن عبد الله بن الجبار المغربي"، المتوفى في أوائل ذي القعدة سنة 656هـ، وتنسب إليه طريقة صوفية يؤمن أصحابها بجملة من الأفكار والمعتقدات الصوفية، ومنها التوبة التي تعتبر نقطة انطلاق المريد أو السالك إلى الله تعالى، والإخلاص والنية والخلوة والذكر والزهد والورع والتوكل، وقد ولد في قبيلة غمارة المقيمة قرب مدينة سبتة بالمغرب الأقصى سنة 593هـ، وأخذ تعاليم شيخه عبد السلام بن مشيش، وهو أحد تلاميذ أبي مدين شعيب البارزين، وينتمي إلى أشراف بني عروس الساكنين عند جبل عالم بتطوان1.

كان ابن مشيش من زعماء الفكر في دولة الموحدين، وقد عاصر عبد المؤمن بن علي المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين، وقد أوصى أصحابه وتلاميذه، ومنهم أبو الحسن الشاذلي، بالابتعاد عن أصحاب السلطة والسياسة، وكانت وفاته سنة 625هـ .

كانت حياة ابن مشيش مُكرّسة لخدمة الدين والتصوف، ولذلك انتشر صيته في كل بلاد المغرب، ويتفق معظم الباحثين على أن شهرته قامت على شهرة أبي الحسن الشاذلي، إذ كان هو الذي كونه ووجهه، كما نصحه بالذهاب إلى تونس للابتعاد عن المؤامرات القائمة في المغرب الأقصى.

عمل أبو الحسن الشاذلي بنصيحة شيخه؛ فتوجه إلى قرية شاذلة الواقعة خارج مدينة تونس، واختلى بها، ثم اشتهر أمره؛ فقصده الزوار والفضوليون، وخوفا على حياته انتقل إلى مصر، وبعد معاناة عابرة استقرّ في القاهرة، وأظهر كراماته وعلمه للخاصة، وكانت وفاته سنة 565هـ.

أصبحت الشاذلية بفضل تلاميذه طريقة في التصوف والفلسفة والعلم، وذلك عن طريق ممارسة الأخلاق والفضيلة والتوحيد، وقد انتشرت في العالم الإسلامي، وكان لها أتباع في بلاد المغرب والمشرق العربيين1، ومنها الجزائر، وعلى الخصوص الزاوية الزيانية التي نحن بصدد تسليط بعض الضوء على المراحل التي مرّت بها.

كانت زاوية درعة مصدر تأثير صوفي كبير على بعض الجزائريين سواء بدراسة هؤلاء فيها، والتتلمذ على شيوخها، أو بمرور زعماء الزاوية أنفسهم في الجزائر بمناسبة الحجّ ونحوه.

رحلته العلمية وشيوخه: يعتبر الشيخ امحمد بن أبي زيان نموذجًا لهذه الصلات والتأثير؛ فقد توفي والده وهو في عمر مبكر، ولذلك خرج من قريته "التحاتة" القريبة من القنادسة متوجها إلى زاوية تافيلالت (سجلماسة) التي كان بها الشيخ مبارك بن عزي1 زعيم الطريقة الشاذلية1، فدرس عليه القرآن الكريم، وقبل وفاة ابن عزي أخذ عليه بوزيان سرّ الطريقة أيضًا1.

ثم توجه إلى جوهرة المغرب مدينة فاس طلبا للعلم بناء على نصيحة شيخه، وبقي فيها لمدة ثماني سنوات أخذ خلالها عن علماء بارزين في وقتهم ومنهم:

محمد بن عبد القادر الفاسي: هو أبو عبد الله محمد بن الشيخ عبد القادر الفاسي الفقيه العالم، الإمام المتفنن، المحقق القدوة الذي أخذ عن والده وأجازه، كما أخذ عن الشيخ السوسي، وابن عمّ أبيه محمد بن أحمد الفاسي وغيرهم، وله تآليف في المنقول والمعقول، وكان مولده سنة 1042هـ، وتوفي سنة 1116هـ1

عبد السلام جسوس: هو أبو محمد عبد السلام بنم أحمد جسوس الفاسي الإمام، شيخ المعارف والفضائل، وأستاذ الأكابر والأفاضل، وصدر المجالس والمحافل، الصوفي المتفنن في العلوم، العالم العامل، صاحب التأليف في الأدعية النبوية، المتوفى شهيدًا سنة 1121هـ1.

أحمد بن الحاج: هو أبو العباس أحمد بن العربي المعروف بابن الحاج الفاسي، الشيخ الإمام، نخبة الأكابر، وبغية الأعلام، الفقيه العلامة الذي كانت وفاته سنة 1109هـ1، وبعد تحصيله للعلم ولمختلف المعارف عاد إلى القنادسة.

تذهب مصادر الطريقة الزيانية إلى أن امحمد بن أبي زيان هو السابع والثلاثون في سلسلة شيوخ الطريقة الشاذلية، ومن ضمن المذكورين في هذه السلسلة شيخه مبارك بن عزي ومحمد بن ناصر الدرعي بالإضافة إلى أبي مدين الغوث وأبي الحسن الشاذلي1.

بعد انتهاء تعليمه في مدينتي فاس وتافلالت، والتي استغرقت مدة قاربت خمسا وثلاثين سنة، توجّه الشيخ امحمد بن أبي زيان إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، وفي طريق عودته زار القاهرة وطرابلس، وتونس أين التفّ حوله الكثير من طلبة العلم1.

بعد هذه الرحلة التي قادته إلى زيارة الكثير من بلاد المشرق العربي، ومكنته من استزادة العلم، عاد الشيخ امحمد بن أبي زيان إلى بلاده سنة 1098هـ(1686م)1، واستقرّ بالقنادسة، وبدأت تظهر عليه الكرامات، وجاءه ألوف الزوار من كل أنحاء الجزائر ومن المغرب وتونس، وحتى من بلاد الترك والحجاز1، وأصبح عندهم قطب أهل التصوف، واستوى في ذلك الأمر عامة الناس وخاصتهم، حتى أن معاصره الشيخ عبد الرحمن الكرزازي مؤسس الطريقة الكرزازية بالقرب من بني عباس قد جاءه زائرًا، ولم يكتف بذلك بل نصح الناس بزيارته، وكانت الزاوية رحمة من الله تعالى على أهل القنادسة وما جاورها من البلاد حيث أغناهم الله بعد فقر، وأمنهم بعد خوف1.

كان ابن أبي زيان يختفي فجأة عن أعين الناس لمدة أسبوع، وهدفه من ذلك هو الاختلاء بنفسه، ثم يعود للظهور من جديد، وكان يركب الحمار في بعض الأحيان، أو يمشي حافي القدمين في أحيان أخرى، وهو دليل على التواضع، وكان يتغذى اعتمادًا على الأعشاب وأوراق الشجر، وكان يغسل ثيابه بنفسه، وكان الهدف من كل هذه الأعمال إعطاء القدوة لتلاميذه.

قام الشيخ امحمد بن أبي زيان ببناء زاوية بالحجر والطوب في القنادسة1، وصارت هذه الأخيرة مركز قصر ذا أهمية كبيرة في المنطقة1، وبعد زمن قصير أصبحت مقصدا للزوار الذين بلغ عددهم في بعض الأحيان أربعمائة زائر، وكان هؤلاء الزوار يجلبون إلى الزاوية القمح والشعير والعسل والشحم، وكان لبناء الزاوية أثره البالغ على مدينة القنادسة التي أصبحت غنية بعد فقر، وعرفت بعدما كانت مجهولة، وارتوت بعدما كانت تعاني من العطش، ويعود فضل هذا الأمر الأخير إلى الآبار التي قام الشيخ امحمد بن أبي زيان بحفرها بالزاوية نفسها، وفي غيرها من المناطق المجاورة، وكانت هذه الآبار موجهة لعابري السبيل، إضافة إلى أهل البلاد الذي كانوا يعانون من ندرة الماء.

كان الشيخ بن أبي زيان يدين بالعرفان لشيوخه الذين تتلمذ عليهم، ويدل على ذلك زيارته لأضرحة كل من مبارك بن عزي ومحمد بن ناصر الدرعي، وغيرهما من المشايخ في سجلماسة، كما كان يزور صديقه عبد الرحمن الكرزازي المعروف أيضا باسم بوفلجة1، ومازالت هذه العائلة موجودة بتلمسان، ومتمسكة بالطريقة الكرزازية إلى يومنا هذا، وكان الشيخ ابن أبي زيان لا يخاف الولاة، ولكنه لا يذهب إليهم كما يفعل غيره من شيوخ بعض الطرق الصوفية، ولذلك كان محل احترامهم.

اعتمد الشيخ ابن ابي زيان على تعاليم الطريقة الشاذلية، وقد أشيعت عنه الكرامات، واعتبر السبحة لازمة له لأن هذه الأخيرة كانت تؤخذ بالسند المتصل إلى الإمام الحسن البصري رحمه الله1، إلى درجة أنه كان يقول: "السبحة واللوح إلى خروج الروح"، وإذا كان يشير بالسبحة إلى الذكر على الطريقة

الشاذلية؛ فهو يشير باللوح إلى قراءة القرآن، ويريد من خلال ذلك التأكيد على أن اللوح ضروري لحفظ القرآن، ومن ثم العلم بصفة عامة.

كان ذلك هو ما دأب عليه الشيخ محمد بن أبي زيان، وكانت طريقته تقوم على أداء الذكر، ومعرفة السلسلة الشاذلية، وسلسلة أهل التصوف السابقين، أما السّبحة والخرقة فلم يكن له فيها تقليد معين، وطريقة الذكر عنده هي التي أوردها الشيخ محمد بن يوسف السنوسي في العقيدة الصغرى، وكان سلوكه في بقية حياته يشبه سلوك معظم المرابطين المنتسبين إلى الطريقة الشاذلية، فقد حج خمس حجات ثلاث منها ماشيا على قدميه1، وتزوج عدة مرات، ورزق بالعديد من البنين والبنات، وكان يقبل الهدايا، وتشير المصادر التي ترجمت له إلى أنه لم يكن يبالي بلذائذ الطعام والشراب، ولا بفاخر اللباس1

بعد حياة حافلة بالنشاط العلمي والعطاء الصوفي، انتقل الشيخ امحمد بن أبي زيان إلى جوار ربه يوم 10 رمضان سنة 1145هـ الموافق لـ24 فيفري 1732م، وقيل سنة 1151هـ حسب رواية أخرى1 ودفن في مدينة القنادسة، وخلفه على رأس الزاوية الزيانية ابنه محمد الأعرج1

تمرّ السلسلة الزيانية بعدد من العلماء والصالحين أمثال أبي مدين شعيب الذي ولد في مدينة إشبيلية سنة 500هـ، وقضى حياته في الأندلس وفاس وبجاية وتلمسان التي توفي بها سنة 594هـ، ودفن في العباد، وقد أفنى حياته في التعلم والتعليمiii، وقد مدحه شرف الدين البوصيري بقصيدة أوردها مؤلف كتاب "مفاخر البربر"، ومما جاء فيها قوله:

يخيل لي في كل شعب سلكته بـأن شعيبـا فـي ذلك الشعب
أبا مدين أوردتني ماء مزينا من الحب حتى فزت بالمنهل العذب
وآنست نارا من جنابك للهدى بدت فانجلت عنا بها ظلم الكرب
فمثلك من يدعوه مثلي لكربه فينجو لحسن الظن فيه من الكرب1

وأبي الحسن الشاذلي الذي سبق التعريف به، ومحمد بن ناصر الدرعي.

أوراد الطريقة الزيانية: تتمثل إجمالا في أذكار الشاذلية مع بعض التغيير، وقد أورد مترجمو الشيخ امحمد بن أبي زيان الأوراد التي كان يلقنها الشيخ أثناء تعليمه لطلبته حيث كان يقول لهم: "وعليكم يا إخواني بكثرة الاستغفار، والصلاة على نبيه وحبيبه سيدنا صلى الله عليه وسلم، وليكن ذلك شغلكم"، وإن أتى إليه أحد يأخذ عنه السرّ يقول له: "طهر الله قلوبنا وقلوبكم، ويسأله أتقرأ القرآن وتحفظه على ظهر قلبك؟ فإن قال: نعم، ناوله بحسب عادته مع أهل القرآن، ويدعو له، ويحضّه على قيام الليل، وحضور القلب عند أمره ونهيه ووعده ووعيده"، وكان يقول لطلبته: "إن رغبتم في الدخول في السلسلة فصحّحوا التوبة بشروطها، وعليكم بتقوى الله، والتوكل عليه في جميع الأمور، والتأهب ليوم النشور، والنزول لسكنى القبور، وإذا فرغتم من الأذكار المأثورة بعد صلاة الصبح فقولوا: استغفر الله مائة مرة،

اللهم صلي على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما مائة مرة، وكذلك لا إله إلا الله ألف مرة، ويزاد عند تمام كل مائة محمد رسول الله"1

خلفاء الشيخ امحمد بن بوزيان:

1- الشيخ محمد الأعرج: **أوصى الشيخ امحمد بن أبي زيان بالخلافة لأحد أبنائه، وهو الشيخ محمد الأعرج بن امحمد بن أبي زيان الذي أورثه سرّه وبركته الصوفية، وأمر اتباعه بطاعته، وقد اتبع سيرة أبيه في تدبير شؤون الزاوية، وكان متبعا للسنة ومجتنبا للبدعة، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، ومواظبا على القراءة والذكر وإصلاح ذات البين وبذل النصيحة للمسلمين، وتعليمهم القرآن وعلومه، وإطعام الطعام لفقرائهم وضيوفهم.**

اشتهر أمر الشيخ محمد الأعرج في الآفاق، ومدحه بعض الشعراء أمثال محمد بن الحاج التلمساني، وكانت وفاته بعد صلاة الظهر من يوم الإثنين الثامن عشر من ربيع الآخر سنة 1175هـ/1761م1

2- الشيخ أبو مدين بن محمد الأعرج: **تتابع الخلفاء على رأس الزاوية الزيانية حيث تولى رئاستها الشيخ أبو مدين بن محمد الأعرج، وهو الذي بنى جامع القنادسة، كما بنى منارة الزاوية هناك، ولم تمنعه رئاسة الزاوية من ممارسة النشاط التجاري الذي مكنه من أن يصبح من أثرياء المنطقة، ولذلك قيل فيه أنه زواج بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وكانت وفاته بعد العشاء من ليلة الأربعاء السابع والعشرين ربيع الآخر سنة 1204هـ/1790م1**

3- الشيخ محمد بن عبد الله بن أبي مدين: **بعد وفاة أبي مدين سنة 1204هـ/1790م خلفه محمد بن عبد الله بن أبي مدين الذي اتبع سيرة أسلافه من إتباع السنة واجتناب البدعة، وإطعام الطعام والمواظبة على الذكر، وكانت وفاته يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة 1242هـ/1825م1**

4- الشيخ أبو مدين بن محمد بن عبد الله: **تولى قيادة الزاوية الزيانية بعده أبو مدين بن محمد بن عبد الله، وهو الخليفة الرابع للزاوية، وكان أديبا وشاعرًا، إضافة إلى تضلعه في الفقه والتصوف، وكان يجالس العلماء ويتذاكر معهم ويعتني بهم، وكانت وفاته يوم الأحد السابع عشر من جمادى الآخرة سنة 1268هـ/1852م1.**

5- الشيخ محمد المصطفى: **خامس خليفة على رأس الزاوية الزيانية هو محمد المصطفى بن محمد بن عبد الله الذي أظهر عطفا خاصًّا على الفقراء والأيتام والأرامل، حيث كان يحسن إليهم ويواسيهم، وكانت وفاته ليلة الخميس الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة 1275هـ/1858م1**

6- الشيخ مبارك: **تولى قيادة الزاوية خليفة سادس هو مبارك الذي لم يبق إلا أحد عشر شهراً، ثم ترك شؤون الزاوية لأخيه، وكانت وفاته سنة 1278هـ/1867م 1.**

7- محمد بن عبد الله: **وهو محمد الذي يقول عنه رين: "إنه هو المتولي عند تأليف كتابه سنة 1884م"، وقد طال عهد محمد بن عبد الله، ويدعى أيضا محمد بن بوزيان- على اسم جده- بن محمد المصطفى، وهو الخليفة السابع في سلسلة شيوخ الزاوية الزيانية، وفي عهده استغنى عن السكان في إطعام الضيوف، حيث أمر مناد له بأن ينادي في البلاد "لا تكلفوا أنفسكم بشيء قليلا كان أو كثيرا"، وكانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة 1312هـ/1895م1.**

8- إبراهيم بن محمد بن عبد الله: **أما الخليفة الثامن فيها فهو إبراهيم بن محمد بن عبد الله الذي كان على رأس الزاوية عندما كتب عنها كل من ديبون وكوبولاني ضمن محتويات كتابهما 1897م، وكذلك كور 1910م، وهو الذي انتهى به كتاب "طهارة الأنفاس" المشار إليه فيما سبق من حديث لأنه عاصره، وكانت وفاته في السابع عشر من جمادى الأولى سنة 1321هـ/1913م1**

9- محمد بن الأعرج: **توفي الشيخ إبراهيم القندوسي سنة 1913م، ومن ثمة لم يحضر الحرب العالمية الأولى، ويبدو أن الذي جاء بعده هو محمد بن الأعرج الذي كان موجودا سنة 1931م، وهو ابن أخي إبراهيم المذكور سابقا، وقد اعتبر الفرنسيون كدأبهم مع غيره من الزعماء بأن ابن الأعرج كان صديقا لهم، وأنه قد أعانهم خلال الحرب العالمية، وقد توفي محمد بن الأعرج في 13 فبراير 1934م، وخلفه ابنه عبد الرحمن1**

نشاط الزاوية الزيانية: إضافة إلى نشاطها العلمي لعبت الزاوية الزيانية دورا كبيرا في النشاط التجاري بالصحراء، وذلك من خلال حماية القوافل التجارية من اللصوص وقطاع الطرق المنتشرين في السبل التي تسلكها هذه القوافل، وأصبح من الضروري بمكان وجود ممثل عن شيخ الزاوية ليتمكن التجار من ممارسة نشاطهم في كنف الأمن والاطمئنان1.

استفادت الزاوية كثيرًا من الممتلكات التي كانت بيدها سواء في القنادسة وتلفيلالت أو في وادي درعة، وبفضلها كانت مداخيل الخزينة كبيرة، ومع ذلك فإن شيوخ الزاوية وأفراد أسرهم كانوا يحيون حياة الزهد والتقشف، وكان جل ما يدخل الخزينة ينفق على الفقراء والمساكين فضلا على إكرام عابري السبيل، وتعليم الطلاب الوافدين إلى الزاوية وفروعها المختلفة، واستقبال كل الفارين من الاضطهاد والبطش1المسلطين من قبل الأطراف الأخرى، وبالخصوص الإستدمار الفرنسي.

تتحدث المعلومات الفرنسية عن الطريقة الزيانية فتقول: "إنها تقدم خدمات كبيرة في المناطق التي تتواجد بها، ولاسيما وقت الاضطرابات والفتن، وكان الخليفة يذهب سنويا للقيام بزيارة القبائل المجاورة والأعراش، وذلك من أجل التفتيش وجمع الزيارات"، ويعتبر الفرنسيون أن الطريقة الزيانية طريقة متسامحة.

وتتمثل ابرز الأعمال التي كانت الزاوية الزيانية تقوم بها في تسهيل حركة القوافل والتجارة واستضافة زواياها العابرين، كما تقوم بإيواء المهزومين والهاربين، وتتدخل لعقد الصلح بين الناس.

لقد سمح شيخ الزاوية بلجوء أعداء فرنسا عنده، ولكنه لم يشجع على الثورة ضدها، ولعل السبب في ذلك هو رغبتها في مواصلة أعمالها الخيرية، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا إذا ابتعدت عن كل ما يتسبب في عداء الفرنسيين لها، ومع ذلك فقد كان أتباع الزاوية الزيانية من بين الأوائل الذين انضموا إلى ثورة الشيخ بوعمامة سنة 1881م، وتذكر المصادر الفرنسية أن الزاوية الزيانية قدمت الشعير وحيوانات الذبح إلى بعثة الجنرال وينفين في وادي قير سنة 1870م، وكان القائد الفرنسي في حاجة ماسة إليها.

ومن الفوائد التي جناها الفرنسيون من زاوية القنادسة تأييدها لهم أيضا في حربهم ضد المانيا سنة 1914م4، فقد بعث الشيخ وصية إلى كافة أتباعه يستنكر فيها استعانة تركيا بألمانيا، وتنبأ بهزيمة تركيا وألمانيا، ولكن الكتابات الفرنسية لا تذكر أن الزاوية الزيانية قد شجعت أتباعها على التجنيد في صفوف الاستعمار الفرنسي.

أورد مؤلف كتاب "مرابطين وإخوان" بعض الإحصاءات المتعلقة بالزوايا المنتشرة فوق التراب الجزائري، ومنها الزاوية الزيانية التي يذكر أن عدد أتباعها يبلغ وقت تأليف كتابه ثلاثة آلاف وأربعمائة عضو موزعين كما يلي:

ولاية وهران: ويتواجد بها أربعة زوايا تضم واحدا وتسعين مقدما وثلاثة آلاف وثمانية وثمانين طالبا.

ولاية الجزائر: ويوجد بها ستة مقدمين ومائتان وسبعة عشر طالبا أو أخا بتعبير المؤلف.

الخلاصة:

كانت هذه بإيجاز أهم المراحل التي مرت بها الطريقة الزيانية التي يعود الفضل في تأسيسها إلى الشيخ امحمد بن أبي زيان بن عبد الرحمن القندوسي، والتي تواصل نشاطها العلمي والخيري رغم تواجد الاستدمار الفرنسي الذي سعى إلى البطش بأهل البلاد، والاستحواذ على ممتلكاتهم وثرواتهم.

لقد ساهمت الزاوية الزيانية في نشر العلم والمعرفة بين ساكني المناطق الجنوبية الغربية على وجه الخصوص، كما عملت على تسهيل الحياة للمقيمين في هذه المناطق من خلال الأعمال الخيرية المختلفة، ولعل أبرزها القيادة الروحية للقوافل التجارية، وحمايتها من اعتداءات اللصوص وقطاع الطرق الذي انتشروا في المنطقة جراء انعدام الأمن بها، وحفر الآبار التي لعبت هي الأخرى دورًا بارزا في استقرار السكان، وممارسة نشاطاتهم الاقتصادية، ومن ثم توفير ما يحتاج إليه أفراد أسرهم وجيرانهم.

فضلا على ذلك لعبت الزاوية دورًا هاما في تقديم يد العون إلى كل من يحتاج إلى ذلك؛ فقد آوت الفارين والمضطهدين، ووفرت الإقامة لعابري السبيل، كما دعمت صفوف المناهضين للاحتلال الفرنسي، ويدلنا على ذلك وجود العديد من أبنائها في طليعة المنضمين إلى الثورة التي قادها الشيخ بوعمامة سنة 1881م.

الهوامش:

– عبد الرحمن بن محمد مزيان اليعقوبي الحسني– فتح المنان في سيرة الشيخ محمد بن أبي زيان– مخطوط بالخزانة الزيانية القندوسية– القنادسة– 3و/الحاج علي بن عبد القادر التازي– منهل الظمآن ومزيل الهموم والكروب والأحزان في كرامات شيخنا العارف بالله سيدنا الحاج محمد بن أبي زيان– مخطوط بالخزانة الزيانية القندوسية– القنادسة– ص 216/المنجرة إدريس بن محمد الفاسي– عذب الموارد في رفع الأسانيد– مخطوط بالخزانة الوطنية (العامة)– الرباط– رقم د 1838– ص 57.

Luis Rinn - Marabouts et Khouan-lib.Adolphe Jourdan – Alger 1884 - p.408

O. Depont/ Xavier Coppolani - les confréries religieuses musulmanes - lib.Adolphe Jourdan – Alger -1897 - p.497.

– توجد نسخ من هذه المخطوطات بالخزانة الزيانية القندوسية التي أنشأها الأستاذ مبارك طاهري بالاعتماد على إرث أجداده شيوخ الزاوية القندوسية، وتضم حاليا أكثر من مائة وخمسين مخطوطا في شتى أنواع العلم والمعرفة وأبرزها كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء لمؤلفه عبد الملك بن الكردبوس التوزري والذي نعكف على تحقيقه، وسيصدر قريبا عن دار الكتب العلمية ببيروت.

– الشيخ محمد بن محمد مخلوف– شجرة النور الزكية في طبقات علماء المالكية– دار الكتاب الرعبي – بيروت الطبعة الأولى– ص254.

– أبو القاسم سعد الله– تاريخ الجزائر الثقافي– دار الغرب الإسلامي– بيروت– الطبعة الأولى 1998م– ج1 ص504.

– الندوة العالمية للشباب الإسلامي– الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب وأحزاب المعاصرة– إشراف ومراجعة د. مانع بن حماد الجهني– دار الندوة العالمية للطباعة والنشر– الرياض 1418هـ– ط3 صص281،379.

– أبو القاسم سعد الله– نفس المرجع– ج4 صص68،74.

– أبو عبد محمد بن القاسم القندوسي– شراب أهل الصفا في الصلاة على النبي المصطفى– تحقيق عبد الله حمادي الإدريسي وخونا أحمد محمود الجكني– دار الهدى– عين ملية–2008م– ص 67.

– نفسه– ج1 ص504.

Louis rinn – opcit – p 408.

– شجرة النور الزكية– ص 329.

– شجرة النور الزكية– ص 331.

– شجرة النور الزكية– ص 328.

– أبو القاسم سعد الله– نفسه– ج1 ص505.

Louis rinn – opcit – p 409.

– شراب أهل الصفا– ص 68.

– فتح المنان– ص 394/منهل الظمآن– ص 82.

– منهل الظمآن– ص 138– 141.

– نفسه – ج1 ص505.

- Louis rinn – opcit – p 409.

– نفسه – ج1 ص505.

– نفسه – ج1 ص505.

– فتح المنان– ص 356/منهل الظمآن– ص 4.

– تاريخ الجزائر –ج1ص506.
- Louis rinn – opcit – p 411.
– تاريخ الجزائر –ج1ص506.
–
– مجهول– مفاخر البربر– تحقيق عبد القادر بوباية– دار أبي رقراق للنشر والتوزيع– الرباط– 2005م– ص 176–717.
– طهارة الأنفاس– ص 99– 101.
– طهارة الأنفاس– ص 26–30.
– طهارة الأنفاس– صص 29– 34.
– طهارة الأنفاس– ص 34.
– طهارة الأنفاس– ص 34– 35.
– نفسه– ج4 ص91.
– طهارة الأنفاس– ص 36.
– طهارة الأنفاس– ص 36– 37.
– Marthe et Edmond Gouvion- Kitab A'yane el Maghariba- Imprimerie Orientale Fontana Frères- Alger- 1920- t 2 p 215.
– نفسه – ج4 ص93 وقد أورد رين وكوبولاني سلسلة شيوخ الزاوية الزيانية على النحو التالي:
* امحمد بن عبد الرحخمن بن بوزيان وتوفي في 10 رمضان 1145هـ، محمد الأعرج وتوفي سنة 1196هـ/1781م.
* أبو مدين بن الأعرج المتوفى سنة 1214هـ/1799م.
* أبو مدين بن محمد بن عبد الله المتوفى سنة 1241هـ/1825م.
* محمد بن محمد المعروف بـ "مصطفى بن محمد" وهو أخو السابق المتوفى سنة 1272 هـ/1853م.
* سيدي محمد بن عبد الله وهو الرئيس الحالي أي سنة 1884م/
– Louis rinn – op411 - cit – p411 / O. Depont/ Xavier Coppolani - les confréries religieuses musulmanes - lib.Adolphe Jourdan – Alger -1897 - p.498.
- Louis rinn – op cit – p 412/ O depont/xavier coppolani – opcit – p499. .
- Louis rinn – op cit – p 413..
– تاريخ الجزائر – ج4 ص93.
- Louis rinn – op cit – p 415.1